الصورة المثلى للرسول محمد ﷺ في نماذج عالمية من الشعر الغربي ـ دراسة تحليلية مقارنة ـ

د. أحمد زهير رحاحلة* د. عدنان أبو محفوظ**

تاريخ وصول البحث: ٢٠١٩/٨/٧م تاريخ قبول البحث: ٢٠١٩/١١/١٠م

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على مصدر من مصادر تكوين صورة الرسول محمد ﷺ ودين الإسلام لدى الأوروبيين وسواهم من الغربيين، وهو المصدر الأدبي؛ بغية الإسهام في نقل الصورة الحقيقية لرسول الإسلام ودعوته، ومحاولة للإسهام في هدم الوعي المعرفي المشوَّه للإسلام ورسوله وأتباعه، وتغييره قدر المستطاع.

ولتحقيق هذه الغاية، فإن الدراسة قد اهتمت بعرض الصورة المثلى للرسول محمد ﷺ الحقيقية المشرقة كما وردت عند عدد من عظماء الشعر الغربي والأوروبي، أمثال: بوشكين، وغوته، وكولوريدج، ولوركا، وفيكتور هيجو، وريلكه، من خلال مقارنة هذه الصورة ومقابلتها بالصورة النمطية المشوهة، وانتهت الدراسة إلى أهمية تحديد مصادر التكوين المعرفي للآخر بالإسلام ورسوله، ووجوب العمل على تصحيحها، وكشف الزور والبهتان والخطأ الذي لاقته منذ فجر الدعوة وحتى يومنا.

الكلمات الدلالية: الرسول محمد؛ الصورة؛ الشعر الغربي؛ المقارنة.

The perfect Image of the Prophet Muhammad in the Western poetry: An analytic and comparative study

Abstract

The study aims to investigate literature as a source of forming the perfect image of the prophet Muhammad (pbuh) and Islam as seen by the Europeans and Westerners in general. The study attempts to convey the true image of the prophet Muhammad (pbuh) and his message to change and correct the distorted image of Islam, the prophet Muhammad (pbuh), and his followers.

To achieve this goal, the study highlights the other image of prophet Muhammad (pbuh) which is a pure and shining one as it was presented by great Western poets like Pushkin, Goethe, Coleridge, Rilke, Hugo, Bunin and Lorca. This image is explored by comparing and contrasting the true image with the stereotypical and distorted one. The study concludes that the sources of knowledge about Islam and the prophet Muhammad (pbuh) are to be correctly determined. Also, these sources must be corrected; and their falsification and distortion must be disclosed.

* أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية السلط للعلوم الإنسانية، جامعة البلقاء التطبيقية.

** محاضر متفرغ، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية السلط للعلوم الإنسانية، جامعة البلقاء التطبيقية.

توطئة.

تكشف الوضعية الراهنة للأمة الإسلامية على نحو لا يحتاج إلى تدليل عن عمق الأزمات التي تعيشها الأمة في هذا العصر، وفي مقدمتها تنامي روح العداء ومشاعر الكراهية تجاه الإسلام وما يتعلق به، على نحو يستوجب شرعا على أبناء هذه الأمة تكثيف الجهود وتوحيدها في سبيل تحديد أبرز ملامح هذه المعضلة، ومسبباتها الرئيسة، ومخاطرها القائمة والمحتملة، وسبل القضاء عليها، إلى جانب معضلات أخرى اقتصادية، وتنموية، واجتماعية، وثقافية، وتعليمية، وغيرها، يفضي بعضها إلى بعض، وتتطلب وعيا وعملا دؤوبا لحلها.

وفي هذا السياق يرصد المسلمون في العالم تزايدا مجحفا في حالات الإساءة إلى رسول الإسلام محمد ﷺ، والافتراءات التي ترافق صورته في وعي غير المسلمين، بوصفها ملمحا أساسيا من ملامح العداء والكراهية للإسلام والمسلمين التي لا يمكن إنكارها أو تجاهلها، وهذا ما يتطلب موضوعية وشمولية في ردود الأفعال تجاه هذه الحوادث، واتخاذ التدابير المثلى للتصدي لها، واستغلال المصادر الممكنة والقنوات المتاحة للقضاء عليها، دون ارتجال الحلول التي قد تكون نتائجها وبالا على الأمة، وتكريسا لمشاريع المتربصين بها، سواء كان ذلك بقصد أو دون قصد.

وفي سبيل ذلك، ترى الدراسة أن الأدب يحمل ضمن وظائفه وغاياته خطابا جماهيريا، يملك قوة في الإقناع والتأثير، إلى جانب كونه مصدرا من مصادر تكوين المعرفة والوعي، ويمكن دائما استغلاله – كغيره من المصادر – في نقل الحقيقة أو تشويهها، وكذلك فإن "وعي الأديب بالدين سيترك أثرا في إبداعاته الأدبية سواء أكان وعيا إيجابيا أم سلبيا، بقصد أو دون قصد"[1]، وعليه فإن الدراسة تسعى قدر المتاح إلى رصد الصورة المثلى – الحقيقية– لرسول الإسلام والدين الذين بُعث به، كما وردت عند مجموعة من كبار شعراء أوروبا الذين بلغوا العالمية في أعمالهم؛ ليكون الشاهد على هذه الصورة من القوم أنفسهم، وهو ما يقوي الحجة، ويبسر الغاية، ويشد عضد السبل الأخرى، علما بأن ما سيرد في هذه الدراسة يختلف في أسلوبه عن أسلوب الشهادات وأقوال المفكرين ورجال الدين والقادة الأوروبيين وغيرهم في دين الإسلام ورسوله الكريم، ويسعى إلى خلق وعي بأهمية الأدب وقدرته على توظيف الدين لخدمة القضايا والرؤى التي يؤمن بها الأديب.

في ضوء ما سبق، تنتهج الدراسة منهجا وصفيا تحليليا، يستعين بأدوات من المنهج المقارن في المواضع التي تتطلبها الدراسة، وتؤطر الدراسة حدودها داخل المصادر الأدبية بالشعر والشعراء الغربيين دون الأجناس الأدبية الأخرى، كالمسرحية، والملحمة، والرواية، والقصة وسواها، على الرغم من أن بعض الشعراء كان مسرحيا أو روائيا إلى جانب كونه شاعرا، كما أنها راعت في اختيارها للشعراء شهرة الأعلام والأعمال، والتنوع الجغرافي من خلال كبرى الدول الأوروبية ليشمل: إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا، وروسيا، وإسبانيا، متخذة من تواريخ ميلاد الشعراء معيارا للعرض. إلى جانب ذلك، فإن الدراسة قد اكتفت بتراجم محدودة للشعراء؛ تقديرا لشهرتهم؛ وتخففا من الكلام الذي يمكن للدراسة أن تستغني عنه، كما أنها اجتهدت في اختيار أدق الترجمات الشعرية وأوثقها إن وجدت، واكتفت بالإحالة إلى المراجع أو المواقع التي يمكن للدارسين أن يقفوا من خلالها على النصوص الشعرية بلغاتها الأصلية، وعليه فإن الدراسة ستعرض تباعا المحاور الآتية: مصادر تكوين الصورة النمطية المشوهة للرسول محمد ﷺ في الوعي الغربي، ثم الصورة النمطية للرسول محمد ﷺ في نماذج مختارة من الأدب الغربي، ثم الصورة المثلى للرسول محمد ﷺ في الشعر الغربي ومصادر تكوينها، وأخيرا القراءة والتحليل.

مصادر تكوين الصورة النمطية المشوهة للرسول محمد ﷺ في الوعي الغربي.

يلزمنا ابتداء أن نشير إلى أن صورة الرسول محمد ﷺ كانت في كثير من الأحيان تمثل معادلا موضوعيا ومقابلا لصورة الإسلام والمسلمين، كما أن صورة المسلمين وحضارة العرب كانت هي الأخرى تعكس في جانب من جوانبها صورة الإسلام ورسوله، ومما لا شك فيه –تاريخيا– أن الصورة الأولى لرسول الإسلام الكريم وأتباعه والدين الذي بعث به هي صورة سلبية تتمازج فيها عناصر الكذب والافتراء والبهتان مع مشاعر البغضاء والعداء والكراهية، على نحو لا يختلف عن مواقف الكفار والمشركين في الجاهلية من الرسول الكريم، وترسخت هذه الصورة النمطية منذ فجر الإسلام وحتى عصرنا بفعل عوامل مختلفة، تحتاج إلى تحليل أبرز ملامحها، ثم تحديد مصادرها، ثم العمل على تصحيحها.

ويتضح أن المكونات الأساسية في هذه الصورة النمطية السلبية تبرز في الإلحاح بشتى الطرائق والتفسيرات لنفي النبوة عن الرسول الكريم، وإبطال سماوية الدين الذي دعا إليه، ارتكازا إلى الكذب والافتراء من جهة، أو تشويه الروايات والأخبار التي تتصل بسيرته ﷺ وسلوكه وأخلاقه من جهة ثانية، أو نزع التعاليم الدينية من سياقها الصحيح، وتفسيرها تفسيرا مضادا لحقيقتها، والاتكاء على الجانب النفسي وأثره في التنفير من الرسول الكريم والتخويف من دين الإسلام وأتباعه.

ارتكز تكوين الصورة الأولى للرسول محمد ﷺ والإسلام في الوعي الجمعي الغربي على عدد من المصادر التي كانت – وما زالت – حريصة على تغذية مشاعر العداء والخوف، وتستغل كل وسيلة متاحة لتحقيق غايتها، ويكاد غالبية الدارسين المسلمين والعرب يحصرون هذه المصادر في: المصادر الدينية، والمصادر التاريخية والفلسفية، وأخيرا المصادر الاستشراقية، وتاليا نظرة موجزة في تلك المصادر، يليها إضافة لمصادر أخرى تمثل امتدادا لتلك المصادر وتطورًا تاريخيا لها.

المصادر الدينية.

تعد المصادر الدينية واحدة من أقدم المصادر وأكثرها تأثيرا في رسم الصورة النمطية السلبية للإسلام ورسوله، وبدأت تأثيرات هذا المصدر تتوالى قبل القرون الوسطى ومع الصراع العربي الإسلامي في الأندلس والحروب الصليبية، ويقول بعض المؤرخين: " كانت أباطيل يوحنا الدمشقي وأمثاله من رجال بيزنطة في القرن الثامن مصدرا استقت منه أقطار غرب أوروبا معلوماتها الأولية عن الإسلام"[٢]، ويمكن أن نقف في هذا السياق على أنموذج من كتابات الأب "لويس مويري" عام ١٦٧٤م وفيه يقول: "محمد نبي مزيف عربي الموطن، دفعه الفقر إلى أن يخدم عند أحد التجار العرب، وعند وفاة هذا التاجر قام بإمتاع أرملته المسماة خديجة، لدرجة أنه تزوجها وأصبح وريثها الوحيد، فاستخدم أموالها ليزدهر ويخدم طموحاته، وبعد ذلك شارك مع "مايتراس" وهو هرطقي يعقوبي، والأب "سرجيوس" وهو راهب نسطوري، وبعض اليهود الذين عاونوه على تجميع القرآن، وبذلك أصبح دينا مكونا من جزء من اليهودية، وجزء آخر من أحلام هرطقية، وقامت جماعة من اللصوص الذين لا يعرفون الله ولا الدين باعتناق هذه الديانة"[٣]، وتبنت الكنيسة سرا أو علنا هذه الصورة، وسعت سعيا تاريخيا إلى تكريسها عبر طائفة كبيرة من رجال الدين الذين تعاقبوا على الكنيسة الأوروبية، وهم يضيفون إليها أكاذيب وافتراءات تتوافق مع أساسها.

ومن الافتراءات والتزييف الممتد، تلك الصورة التي نقف عليها في كتاب " التاريخ العام للأتراك"، ويقول صاحبه: " وبما أن محمدا لم يكن بوسعه أن يقوم بمعجزات الأنبياء فقد استعان بالخداع والخرافة، وكان يحمل الناس ليشاهدوا روح الله تتنزل عليه، وكان هناك حمامة مدربة تطير من مكان قرب منكبيه، وتلتقط الحب الذي كان يضعه لها في فتحة أذنه موهما العرب أنها كانت تملي عليه كتاب الله وشريعته"[٤]، هذا التفسير المزور للوحي حاضر في بعض الأعمال الأدبية الغربية، ومع ذلك استشعر بعض الغربيين التهافت الواضح لأسطورة الحمامة والوحي، فذهبوا إلى تفسير آخر أقل شططا في تفسير الوحي، كاتهامه عليه السلام بالصرع، أو أضغاث الأحلام، أو الغيبوبة الطارئة، أو خداع حسي أو هلوسة وهذيان، وغيرها من المحاولات السقيمة لنفي النبوة والوحي عنه عليه السلام.

إضافة لما سبق، شكلت المرأة، وتعدد الزوجات، والطلاق، ولباس المرأة والحجاب، ونقض عقيدة التثليث، وعقيدة الصلب، وغيرها من القضايا أبرز المداخل الدينية عند الغربيين لكيل الاتهامات للرسول والمسلمين، ومادة للبهتان والافتراء على الله.

المصادر التاريخية والفلسفية.

لم تختلف نظرة المؤرخين والفلاسفة وعلماء الإنسانيات الغربيين في مجملها عن نظرة رجال الدين وعلمائه للإسلام ورسوله، " واتهم كل من ليوني كايتانين، وجولدتسيهر، وبندلي جوزي، وبرنارد لويس، الفتح الإسلامي بأنه لم يكن موجها نحو المثل الأعلى وحده، بل إن العرب كانوا جياعا في جزيرتهم، فخرجوا يلتمسون الأكل إثر قحط نزل ببلادهم، ولم يخرجوا عن عقيدة وإيمان، فكان الحافز على الفتوحات الإسلامية الرغبة في التوسع الاقتصادي أو الحاجة إلى مزيد من الثراء" [٥]، وبذلك بدأت مرحلة كتابة التاريخ العربي وفقا لهذه الرؤية الغربية.

وحتى لا نتعمق كثيرا في هذا الجانب، فإننا نذكر بعض أبرز النماذج الكافية لتوضيح المسألة، وفي هذا السياق نقف مع "مارتن لوثر" زعيم الإصلاح البروتستانتي الذي يقول: " إن الإسلام حركة عنيفة تخدم أعداء المسيح، ولا يمكن جلبها للمسيحية؛ لأنها مغلقة أمام المنطق، ولكن يمكن مقاومتها فقط بالسيف"[٦]، ويعلن فيلسوف الغرب الجديد، الأمريكي فرنسيس فوكوياما في كتابه "نهاية التاريخ" صراحة "أن الإسلام أصبح خطرا كبيرا على الممارسات الليبرالية، وأن هناك تشابها بين الأصولية الإسلامية والنازية الأوروبية"[٧]، أما "وليم ميور" الذي يعد مؤرخ الإسلام، فيكتب أن الرسول قد انتابته الشكوك والشبهات فيما يصله من إلهام وفي هدفه النبوي"[٨]، ثم انتهى لتفسير الوحي "بأن السبب في ذلك كان (الطعام) الذي يأكله الرسول"[٩]، وتعاقب كثير من المؤرخين على تزوير التاريخ العربي الإسلامي، واجتهد الفلاسفة في تقديم تفسيرات كاذبة لظهور الإسلام وتناميه.

المستشرقون.

لم يعد الحديث عن المستشرقين وآثارهم المدمرة –بصورة عامة– على التاريخ والحضارة والدين شيئاً جديداً، لكننا نقف مع أنموذج للمستشرق الفرنسي من أصل يهودي مكسيم رودونسون (١٩١٥–٢٠٠٤م) الذي يؤكد على الصورة

المشتركة لدى غالبية المستشرقين "صورة الإسلام باعتباره وثنية شرقية، وهرطقة مسيحية، يعبد أهلها الثالوث: محمد، وترفا جانت، وأبولو، وصور رسول الإسلام صلى الله عليم وسلم ساحرا مخادعا، أباح الاتصالات الجنسية، وهو كبير آلهة العرب"[١٠]، أما المستشرق المعاصر "كيمون" فيقول في كتابه باثولوجيا الإسلام: " إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس، وأخذ بهم فتكا ذريعا، بل هو مرض مريع، وشلل عام،...، أعتقد أن من الواجب إبادة خمس المسلمين، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر" [١١]، ويكفي لفهم الاستشراق ودوره في رسم الصورة النمطية السلبية للإسلام ورسوله أن ننظر فيما كتبه إدوارد سعيد حول هذا المجال، وفيه نقرأ:" وهكذا انتشر الاعتقاد في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بأن بلاد العرب تقع على حافة العالم المسيحي، وأنها ملجأ طبيعي للزنادقة والخارجين على القانون، وأن محمدا ﷺ كان مرتدا ماكرا، وكان القرن الثاني عشر يرى أن الباحث المستشرق، أي المتخصص العالم، كان من يُركن إليه لإيضاح أن الإسلام لا يزيد في الواقع عن بدعة أيروسية من الدرجة الثانية"[١٢].

لا شك أن الحديث عن الحركة الاستشراقية يمتد إلى أبعاد يضيق المقام عن بسطها، إلا أن مراميها النهائية كانت مبنية في مجملها على وظائف وقناعات مسبقة للنيل من الإسلام، وبث حالة من الرعب والعداء له، وهذا ما عززه ظهور مصادر حديثة استثمرها الغرب في استكمال جهود ترسيخ الصورة النمطية [١٣]، نعاين منها الآتي:

الإعلام والسينما الغربية.

مع تراجع دور المصادر السابقة في نقل الصورة النمطية – على الرغم من بقاء تأثيرها– كان لا بد من البحث عن مصادر جديدة تناسب روح العصر، فجاءت وسائل الإعلام، وصناعة السينما للنهوض بمهمة تكريس الصورة النمطية السلبية عن الإسلام والمسلمين والرسول الكريم، ونسوق في هذا المقام شهادة غربية على ذلك، يقول فيها جون اسبوسيتو في كتابه "خطر الإسلام أسطورة أم حقيقية؟" : " ما يكتب بإنصاف وموضوعية عن الإسلام في الغرب محدود،...، وسائل الإعلام الغربية ترسم صورة مخيفة ومكروهة عن المسلمين، وبعد أن كانت صورة المسلم هي صورة البدوي، وتعدد الزوجات والحريم، أصبحت صورته الآن الإرهابي المدجج بالسلاح، المحارب للغرب"[١٤].

ومع أن الأمر يبدو في ظاهره يمثل تحولا في الصورة التقليدية، إلا أن المسألة لا تتجاوز تحولا ظاهريا يحافظ على مضمون الرؤية السلبية، والقيم المضللة للصورة، وبقيت صورة الإسلام والرسول الكريم وأتباعه بدلالاتها التقليدية تسيطر على الإعلام الغربي، الذي بات تأثيره السلبي أخطر بكثير من تأثير الخطاب الديني أو الاستشراقي، أما على مستوى السينما فيمكن أن نشير إلى كتاب جاك شاهين "العرب الأشرار في السينما: كيف تشوه هوليود شعبا"، وفيه يفهرس المؤلف جميع الأفلام الصادرة بعد عام ١٩٩٦م، ويكشف الشخصيات السلبية في كل واحد منها، ودورها في تشويه صور الإسلام والمسلمين، وترسيخ المشاعر العدائية[١٥].

بقي أن نشير إلى أن تقديم هذه الصورة النمطية السلبية والعمل على تكريسها لم يكن مقتصرا على السينما، وإنما تجاوز ذلك إلى الأعمال الدرامية المتلفزة، وبرامج الرسوم المتحركة الموجهة، وفي بعض المناهج الدراسية، والكتب التعليمية، وغيرها.

جماعات من المسلمين أنفسهم.

يمكن أن نعاين تحت هذا السياق صنفين من المسلمين أسهموا في ترسيخ الصورة النمطية والسلبية للإسلام والمسلمين، الصنف الأول: المسلمون الذي لا حظ لهم من الدين إلا الهوية، والله ورسوله براء من أفكارهم وجهلهم وتطرفهم، وأنموذجهم الجماعات الإرهابية والتكفيرية المتطرفة التي تظهر بين حين وآخر، وتُقدم على أفعال تربط الإسلام بالقيم الدخيلة عليه، وأسهمت إسهاما كبيرا في ظهور ما يطلق عليه "الإسلاموفوبيا" والتي يمكن القول عنها إنها وسيلة معاصرة من وسائل بعض الغربيين في شيطنة الإسلام والمسلمين.

والصنف الآخر، هو مجموعات من بعض المسلمين الحداثيين، وأدعياء التنوير والمعاصرة، نفثت كتاباتهم أفكارا سلبية، وخطابا موجها لجمهور المسلمين يحاولون فيه تفسير " الوضع المتردي للمسلمين، ويقنعونهم بأن سبب هزائمهم المتكررة هو التمسك بالإسلام"[١٦] وهو ما استغله الغرب واستشهد به لترسيخ الصورة النمطية السلبية عن الإسلام ورسوله.

نخلص في هذا المحور إلى أن المصادر الأساسية التي استند إليها الغرب في تكريس الصورة النمطية السلبية للإسلام ورسوله بصورة خاصة، وللمسلمين بصورة عامة هي مصادر قديمة متجددة، كان لا بد من الوقوف عليها والإشارة إليها لإحكام الربط بين الغاية والوسيلة، وهو ما يتضح في المحور الآتي.

الصورة النمطية للرسول محمد ﷺ في نماذج أدبية غربية مختارة.

انتقلت الصورة النمطية للرسول محمد ﷺ والإسلام والمسلمين من المصادر التي عرضناها في المحور السابق إلى كثير من الأعمال الأدبية الأوروبية، وتنامت وتكاثرت إلى حد تحول معه الأدب الأوروبي ذاته إلى مصدر مستقل وجديد من مصادر تكوين هذه الصورة يمكن أن يضاف إلى المصادر السابقة، ومما عمق من تأثير الأعمال الأدبية المندرجة تحت هذا الاشتغال ارتباط تلك الأعمال بأسماء كبار الأدباء والشعراء الغربيين، وهذا الأمر يعزز ما تذهب إليه الدراسة من طرح يتصل بأهمية الأدب وتأثير الأسماء الكبيرة في عالم الأدب في توجيه الجماهير، والتدخل في بلورة رؤاها وقناعاتها، وصوغ الخطابات التي تتدخل في رسم صورة الآخر في وعيها.

إن تحليل هذه الصورة يكشف لنا أنها قد اتخذت مسارين في أثناء تشكيل الآداب الأوروبية، المسار الأول يمثل انعكاسا وامتدادا للمصادر الدينية، والتاريخية والتبشيرية، وخطابات الحروب الصليبية، وروايات المستشرقين، ويتقصد أصحابه تقديم الأعمال الأدبية التي تهدف إلى ترسيخ الصورة النمطية السلبية، عن وعي وتقصد، ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى الملحمة الشعرية الشعبية "نشيد رولان" بوصفها من أقدم النصوص الأدبية التي تتكئ على المضمون الديني في بنائها وتمثل مرحلة الصراع الإسلامي النصراني في العصر الأندلسي، وتؤكد على أن الحل الوحيد لمشكلة الإسلام هو بحد السيف فقط.

ومن النماذج الشعرية الأوروبية العالمية التي سلكت هذا المسلك أيضا "الكوميديا الإلهية" للشاعر الإيطالي الكبير "دانتي"، وإذا تجاوزنا الحديث عن المؤثرات الإسلامية في "الكوميديا الإلهية" وفي مقدمتها حادثة الإسراء والمعراج، وكذلك رسالة الغفران للشاعر العربي أبي العلاء المعري، كما أثبتها الدارسون العرب وبعض المنصفين من المستشرقين، فإن الصورة التي رسمها دانتي للرسول ﷺ وابن عمه الإمام علي –كرم الله وجهه– كانت مريعة جداً[١٧]، وتركت أثراً بالغاً في

جمهور الغربيين، الذي لم يتحرر أصلا من المصادر الأخرى التي تعزز افتراءات بعضها بعضا.

ونجد أنموذجا آخر تأثر شكلا ومضمونا بالكوميديا الإلهية لدانتي وهو "الفردوس المفقود" لجون ملتون، الذي يحشد طائفة من الأباطيل والأساطير عن الرسول الكريم والمسلمين كخرافة قبره ﷺ المعلق بأحجار مغناطسية بجانب الكعبة، وأساطير كهف حراء، ودعوى نشر الإسلام بالسيف، وشبقية الرسول وأتباعه، ومصيرهم الحتمي في الآخرة [١٨].

ونقف على أنموذج عالمي آخر هو الكاتب والشاعر وليم شكسبير، الذي لم يكلف نفسه عناء البحث والتدقيق في الأخبار والخرافات التي وقف عليها في المصادر الدينية والتاريخية والأدبية التي سبقته، والتي تتصل بصورة الرسول محمد ﷺ النمطية، فنجده يشير إشارات عابرة في بعض أعماله لمثل هذه الأساطير، كما في مسرحيته هنري الرابع التي يشير فيها إلى كذبة أن المسلمين يعبدون محمدا، أو وثنية محمد ﷺ التي يشير إليها في مسرحية روميو وجولييت، والملمح ذاته في مسرحيته هنري السادس التي يسخر فيها من خرافة الحمامة التي دربها محمد على التقاط الحب من أذنه ليخدع الناس بأنها تمثل الوحي، ومع أن ما جاء في أعمال شكسبير كان عرضا في مسرحياته وإشارات عابرة، ولم يكن أساسا لها إلا أن ذلك يكشف عن قناعة كانت راسخة عنده في مرحلة من مراحل تجربته الأدبية.

ونجد التشويه ذاته، والافتراءات على الرسول محمد والإسلام في روايتين للسير والتر سكوت، هما: "المخطوبة" و"الطلسم"، اللتان تفيضان كرها وعداء للرسول الكريم وللمسلمين، "كما نجد في الأعمال التي تتصل بالشرق والإسلام في مؤلفات: تشوسر، وماندفيل، ووليم شكسبير، وجون دريدان، وألكسندر بوب، واللورد بايرون، وغيرهم كثير"[١٩].

المسار الثاني هو الذي غلب عليه الجهل بحقيقة الصورة أو التردد في رسمها في أعماله الأدبية، والتقليد لما هو رائج، على نحو يمكن الفهم منه ضمنيا أن كسر الصورة النمطية السلبية أو تغييرها لم يكن داخلا ضمن حساباتهم، والفئة التي غلب عليها الجهل بحقيقة الصورة ولم تكن تتقصد ترسيخها كانت مرهونة بالتبعية للصورة النمطية السائدة، وهذا ما يجعل التأكد من حقيقة جهل أصحابها بها أمرا متعذرا إلا في نطاق حالات محدودة أثبتها تراجع هؤلاء الأدباء عن مواقفهم الأولى والمجاهرة بقناعتهم بتصويب الصورة، ومن هؤلاء الأديب الفرنسي "فولتير" الذي سار في بداياته على نهج من سبقوه، فكتب مسرحية شعرية عنوانها: "محمد أو المتعصب"، هاجم فيها الرسول الكريم هجوما عنيفا، ووصفه بأبشع الصفات التي كانت تتردد عند من سبقوه، وردد كثيرا من الخرافات والأساطير التي شاعت حول الرسول والإسلام والمسلمين، لكنه عاد بعد ذلك ليثني على الرسول محمد، ويذهب إلى أبعد من ذلك بأن جعل دينه أفضل من المسيحية، وهذا ملمح يدلل على أن بعض الكتّاب والمبدعين " لم يستمدوا مادة كتاباتهم عن السيرة من مظانها الأصلية، ولكن تلقفوها من الحكايات الشعبية، ومن الثقافة الشفوية والمتداولة بين عامة المسيحيين وسادتهم"[٢٠].

ويتبين للدراسة أنه حتى بداية العصر الفكتوري ونهايات القرن الثامن عشر لم تتغير الصورة النمطية السلبية للرسول محمد والإسلام والمسلمين كثيرا، وعند هذا الامتداد الزمني كان الأدب الغربي بشعره ونثره قد تحول هو ذاته إلى مصدر أساسي من مصادر رسم الصورة النمطية.

الصورة المثلى للرسول محمد ﷺ في الشعر الغربي ومصادر تكوينها.

إن تراجع التهديد الإسلامي المتمثل في ذلك الحين في الخلافة العثمانية، إلى جانب التطور الكبير في علاقة الاتصال

والتواصل بين الشرق والغرب، وازدهار الترجمة، والمراجعات الأدبية والتاريخية، والتحولات الدينية والثقافية والاجتماعية التي شهدتها أوروبا في أواخر العصر الكلاسيكي، أوجدت جيلا جديدا من الأدباء والمفكرين أكثر عقلانية وموضوعية في عدائه للإسلام والمسلمين، وأشد وعيا بتهافت الصورة النمطية المتوارثة في المصادر المختلفة، على نحو أسس لظهور بوادر للتحول في الصورة النمطية، وإن كان – وما زال– محدودا وغير كاف للتعريف بحقيقة الإسلام ورسوله وأتباعه، لكنه يمثل سبيلا يستحق البذل فيه.

وكما بدأ أمر الصورة النمطية السلبية دينيا صرفا، فكذلك بدأ أمر الصورة المثلى الحقيقية دينيا؛ ذلك أن عامة الأوروبيين بدأ يضيق ذرعا بالكنسية ورجال الدين الفاسدين، ولم يعد غالبية أتباع الكنسية يصدقون الأباطيل والأكاذيب، على نحو مهد السبيل لظهور المقارنات الدينية، التي كشفت شيئا فشيئا عن القيم الإسلامية المثلى التي بدأ الغرب يفتقدها، ويرى أحد الباحثين أن عام ١٦٧١م شهد "أول فجر لعمل موضوعي منصف من سيرة الرسول في التاريخ البريطاني حمل عنوان: الاعتبار في نهوض وتنامي المحمدية والدفاع عن محمد ودينه من مطامع المسيحيين، للفيزيائي والكاتب البريطاني هنري ستوب، والغريب أن هذا الكتاب لم ير النور إلا في عام ١٩١١م"[٢١]، وأيا ما كانت البداية فإن التغير الأهم يظهر في قول برنارد لويس: " لقد ظهرت في كتابات عصر التنوير شهادات إيجابية بحق محمد على أنه الحكيم والمتسامح والمشرّع والحاكم والمجدد،...، على الرغم من إدانتهم واتهاماتهم له بالتعصب والتلفيق"[٢٢]، وعلى صعيد مواز، بدأ بعض المستشرقين والمؤرخين يميل إلى تدوين الحقائق، والتعامل بموضوعية وعلمية مجردة مع الإسلام والشرق، ولعل أول ملامح هذا التغير بدأت من خلال تفنيد الخرافات والأكاذيب الفجة، والروايات الواهية التي انتشرت في المصادر الغربية الأولى، وهذا كله أسس لخلق وعي جديد لدى عدد من الأدباء الغربيين الكبار بحقيقة صورة الإسلام والرسول محمد، وبدأت تظهر ملامح جديدة للصورة الحقيقية المشرقة، نتتبعها تاليا لدى أبرز أعلام الشعر الغربي حسب المنهجية التي تم توضيحها في مقدمة هذه الدراسة:

صامويل تايلر كوليردج "Samuel Taylor Coleridge" (١٧٧٢–١٨٢٤م).

شاعر وفيلسوف إنجليزي، يعد واحدا من أبرز مؤسسي الحركة الرومانسية الحديثة إلى جانب صديقه الشاعر ويليام ووردزوورث، من أشهر أعماله "أغنية البحار القديم"، و"الأناشيد الغنائية"، و"قبلاي خان"، كتب في عام ١٧٩٩م قصيدة عنوانها (محمد Mahomet) خصصها للحديث عن شخصية الرسول محمد الحقيقية، ولعل هذا ما جعلها ضمن دائرة الإبداعات المنسية "[٢٣]، ولا نكاد نجد تفسيرا مقنعا لغياب وقوف الدارسين الغربيين أو العرب على هذه القصيدة، ويمكن للقارئ الوقوف عليها في الرابط المدرج في هذه الإحالة[٢٤].

تعد هذه القصيدة بشهادة المتخصصين الغربيين من أروع ما كتب عن صورة الرسول محمد في الأدب الإنجليزي، "تقع القصيدة في أربعة عشر سطرا شعريا، دافع فيها عن الرسول واصفا إياه بأنه النبي الواعظ، والثائر البروتستانتي، والمحارب المتحمس، الذي سحق طقوس الكفر عند وثني مكة، وعند وثني المسيحية، ناشرا بذلك تعاليم الإنجيل الحقيقية"[٢٥]، ومع ذلك فإن الشاعر لا يخفي أساه تجاه المسيحية، ويكشف عن شوقه لبعث الجانب الروحاني في تعاليمها كما فعل الإسلام، وقد يكون من التعسف ربط هذه النظرة الجديدة لشخصية محمد بالتوجهات الرومانسية التي تبناها كولوريدج، وأسس لها عالميا.

على الرغم من الجهود الحثيثة التي بذلتها الدراسة للوقوف على ترجمة عربية للقصيدة إلا أن تلك الجهود لم تثمر في الوصول إلى نتيجة، وهذا ما يجعل هذه الدراسة تزعم بأنها أول عمل يتضمن ترجمة لهذه القصيدة، وهذه ترجمتها:

مُحَمّد

أَطلِقُوا النَّشِيد، آه يَا رُوحِي! هِجرَةُ وَعَودُ نَبِيُ اللهِ مُحَمّد
رَسُولُ اللهِ، بَدّدَ دَيَاجِير الشَّرِ، وَنَشَرَ الرَّأفةَ وَالبَرَكَات
وَتَبّرَ مَمَالِكَ مُترَفة عِظَامًا، أَسَّسَت وَقَدَّسَت قهراً وظلمات
رُوحُهُ الوَدِيعَةُ، تُزهِقُ كُلَّ شَعِيرَةِ كُفر وَشِركٍ ووثنيات
وكلَّ عابدِ صَنَم مِن نَصَارَى حَرفُوا عَن المسيح الكَلِمَات
هُمُ أَكَابِرُ الفسَادِ وَالفِسقِ، هُمُ أَفسَدُ مِن الفَاسِدِين
هَوَ من سَمَّاهُ اللهُ فَارِسَ مَكَّةَ المِغوَارُ المُبِين
واختَارَ الله الطّيِبَ لِيَمحُوَ البَاطِلَ والحقَ لا يَنشُرُهُ المُبطِلُون
وَلَو تَرَى فَوعَةَ مكّةَ إذ الأصنَامُ أَسفَلَ سَافِلِين
عرايا أَذِلّةً يَقبَعُ المُشرِكُون فِي نُحِيبٍ مُستَعِر
مَبهُوتِينَ فِي لَحظَتِهِم فِي حُزن وعَوِيلٍ مُستَمِر
وَهَدِيرُ النَهرِ المُدَمّرِ يُحلّقُ فَوقَ قَنَاةٍ من الصخر
يَشقُ الماءَ فِرقِينِ فِي صَخَبٍ مُمَوّهٍ مُضطَرِب
كلُّ فِرقٍ إلى مصيره مسرعاً مسرعاً يسير ...(٢٦)

تكشف القصيدة –ضمنيا– عن مقارنة دينية بين المسيحية والإسلام، يحرص الشاعر من خلالها على إظهار عظمة الرسول، ونقاء عقيدته وصفائها من الوثنيات والشرك، ومع أن ظاهر القصيدة تمجيد في الإسلام، وحمل على المسيحية، إلى أن الدلالة العميقة للنص تتمثل في حمل الشاعر على رجال الدين المسيحي وليس المسيحية، الرجال الذين يعتقد أنهم خانوا تعاليم المسيح، ولم يفعلوا ما فعله محمد ﷺ مع الشرك والكفر والظلم والفساد.

إن ارتباط اسم فيلسوف وشاعر ومؤسس للحركة الرومانسية الحديثة بقصيدة شعر تمجد الرسول محمد ﷺ، وتتجاوز تقاليد الكذب والافتراء والتجني، يمثل وسيلة من وسائل تعزيز جهود تصويب الصورة المثلى والحقيقية للرسول الكريم ورسالته، وتستوجب منّا العمل على التعريف بها، وتوجيهها على النحو الأمثل.

يوهان فولفغانغ غوته "Johann Wolfgang Goethe" (١٧٤٩– ١٨٣٢).

تجمع المصادر والمراجع أن غوته أحد أشهر أدباء ألمانيا المتميزين، والذي ترك إرثاً أدبياً وثقافياً ضخماً للمكتبة الألمانية والعالمية، وكان له بالغ الأثر في الحياة الشعرية والأدبية والفلسفية، وما زال التاريخ الأدبي يتذكره بأعماله الخالدة التي ما زالت أرفف المكتبات في العالم تقتنيها كواحدة من ثرواتها، وقد تنوع أدب غوته ما بين الرواية، والكتابة المسرحية، والشعر، وأبدع في كل منها، واهتم بالثقافة والأدب الشرقيين، واطلع على العديد من الكتب، فكان واسع الأفق مقبلاً

على العلم، متعمقاً في دراساته.

ونظراً للمكانة الأدبية التي مثلها غوته، تم إطلاق اسمه على أشهر معهد لنشر الثقافة الألمانية في شتى أنحاء العالم وهو "معهد غوته"، والذي يعد المركز الثقافي الوحيد لجمهورية ألمانيا الاتحادية الذي يمتد نشاطه على مستوى العالم.

تأثر غوته تأثرا منقطع النظير بالحياة العربية والبيئة الشرقية، وأعجب إعجابا شديدا باللغة العربية، وبرسم الحرف العربي، وكان الشعر العربي مصدرا من مصادر إبداعه وخاصة المتنبي وأبا تمام وحافظ الشيرازي، والمعلقات وغيرها، ولقي القرآن الكريم والسيرة النبوية اهتماما عز نظيره عند أدباء الغرب في زمانه، على نحو تجاوز الحضور في الأعمال الأدبية إلى كل تصريح أو حديث ينطق به غوته، بل كان دائما يجاهر أنه لا يجد حرجا باتهامه بأنه قد أسلم، ويحفظ كثير من المسلمين قوله : "إن الإسلام هو الرأي الذي سنقر به جميعاً إن عاجلاً أو آجلاً، وأنا لا أكره أن يقال عني أني مسلم"[٢٧]، وهذا ما دفع عددا من الباحثين المقارنين العرب إلى أن مناقشة إجابة السؤال: هل أسلم يوهان غوتة؟

تعددت الأعمال الشعرية والمسرحية التي تناول فيها غوته شخصية الرسول الكريم على نحو مثالي مشرق، وتذكر المصادر أنه نظم قصيدة وهو في الثالثة والعشرين من عمره يمتدح بها الرسول محمدا ﷺ عنوانها "أنشودة محمد"[٢٨]، ويمكن للدراسة أن تكتفي بما يحقق غايتها من خلال الوقوف على ديوان غوته الذي عنوانه "الديوان الشرقي للمؤلف الغربي"، وهو ديوان كبير، يكشف عن حقيقة نظرة الشاعر للشرق وللإسلام ورسوله، ومن النماذج التي نقف عليها قوله:

إذا اغتاظ أحد من أن الله
شاء أن يهب محمدا الأمن والسعادة
فليربط حبلا متينا بأقوى الأعمدة
في قاعة بيته
وليشنق نفسه به، فهذا مفيد له
إذ سيشعر حينذاك بأن غيظه سيذهب عنه[٢٩]

ولا يترك الشاعر قصيدة أو مناسبة إلا ويشيد فيها بالرسول الكريم ﷺ، وحين بلغ السبعين من عمره أعلن أنه سيحتفل بخشوع بليلة القدر، الليلة التي أنزل الله فيها القرآن على أعظم رجل عرفه تاريخ الإنسانية، وهذا كله ترك أثرا إيجابيا في القارئ الغربي تجاه الإسلام والرسول الكريم والشرق بصورة عامة. إن الشعر والأدب الذي يمجد فيه غوته الرسول محمد ﷺ يحتاج إلى دراسات مستقلة تكشف عن كمه وكيفه، وبنيته الجمالية، ومضامينه الروحية والدينية، وهو ما يجعل الدراسة تكتفي بالإشارة الدالة عليه.

ألكسندر بوشكين "Alexander Pushkin" (١٧٩٩- ١٨٣٧م).

يعد بوشكين بإجماع الدارسين شاعر روسيا الأكبر وأمير شعرائها، ولد لعائلة من النبلاء، وظهر نبوغه الشعري منذ طفولته، "والحديث عن الشعر الروسي الكلاسيكي أو الشعر الحديث لا يخلو من الإشارة إلى ارتباطه بالتراث الشعري لبوشكين، الذي يبرز لا كعبقرية شعرية متميزة فحسب، بل وكظاهرة فنية حوت بداخلها أهم تيارات الأدب الروسي الكلاسيكي"[٣٠]، ومن هنا تعددت مصادر ثقافة بوشكين وتنوعت، وتركت أثرها في الأدب الروسي والأدب العالمي.

أعلن بوشكين مرارا عن إعجابه وتقديره للحضارة الإسلامية، والسحر القادم من الشرق، وعكف على الدراسة والاطلاع من مختلف المصادر التي وقعت بين يديه، "كذلك قرأ بوشكين القرآن والإنجيل، وتعرف على رائعة الأدب العربي ألف ليلة وليلة"[٣١]، مما جعله قادرا على التمييز بين الحقائق والدسائس، واهتم بوشكين بشخصية الرسول الكريم اهتماما خاصا، وتكشف أعماله الإبداعية عن وقوفه على سيرة الرسول محمد ﷺ وعلى أحاديثه، وهذا ما نجده ماثلا في قصيدة كتبها عن الرسول محمد ﷺ، بعنوان " النبي" يقول فيها:

ظامئا قلبي الوحيد،
قطعت الأراضي البور القاحلة
حين وجدته أمامي، ساروفيم المجنَّح،
صامتا، منتصبا،
وعلى مفترق الطرق انتظرني.
على عيوني الطينية العمياء
وضع أصابعه برفق،
وكعيني نسر عند الرعب،
فتحتا وراقبتا الأرض والسماء،
لمس أذني، ثم الأخرى.
وواضحة متميزة تماما،
أتتني الرفرفة الرهيفة لأجنحة الملاك،
فسمعت الكرمة
وهي تغوص في الأرض، وترتفع في السماء،
وهولات أعماق البحر
تنزلق في الماء كالأسماك..
اعتصر لساني الآثم البارع من فمي،
وانتزعه بيد دامية،
مال فوقي بلا شفقة
ودس ناب أفعى بين شفتي الهامدتين..
ثمَّ- غارسا سيفه اللامع ببطء-
شق صدري،
واقتلع قلبي المرتعش المعتم الكالح،
وغرس بتثاقل في الفجوة المفتوحة
جمرة سرت مع اللهيب..

رقدت هناك،ميتا،
وإلهي، تكلم يا إلهي،
وهذا ما قال:
انهض أيها الحكيم، يا من تسمع دعوتي
افعل كما أطلب، يا من يعوقك العدم،
تقدم على الأرض، نبيا، لافحا قلوب الرجال
بكلمة الحق...[٣٢]

يستلهم بوشكين خبر نزول جبريل بالوحي لأول مرة على رسولنا الكريم، ويعيد صوغ الخبر صياغة فنية شعرية، ويأتي في القصيدة على وصف جبريل عليه السلام، وحالة الذعر التي أصابت الرسول الكريم حينها مشبها إياه بالنسر المذعور، وكيف تكشف له عليه السلام بعد الوحي حقيقة الكون والوجود، بعد أن أعطاه الله لسان الحكمة، ويشير إلى حادثة شق الصدر، على نحو متسق مع الروايات الإسلامية، وهو ما يكشف عن اعتقاده بصدق رسالة محمد عليه السلام، وأن الوحي قد جاءه، وأنه رسول من الله.

لا يقف تأثر بوشكين بالإسلام عند حدود شخصية الرسول محمد عليه السلام، ولكنه يظهر جليا في مجموعته الشعرية "قبسات من القرآن" وهي مجموعة شعرية تتكون من تسع قصائد، "تعكس المكانة المهمة التي أحدثها القرآن في التطور الروحي لبوشكين"[٣٣]، ولأننا نتحدث عن مجموعة شعرية تحتاج إلى دراسة مستقلة، فإننا نكتفي في هذا المقام بعرض مقتطف شعري من القصيدة الأولى، يقول فيه:

أقسم بالشفع وبالوتر،
وأقسم بالسيف وبمعركة الحق،
وأقسم بالنجم الصباح،
وأقسم بصلاة العشاء
لا، لم أودعك...[٣٤]

يظهر في هذا المقطع استلهام بوشكين لآيات قرآنية من سورتي الفجر والضحى، يتوافق مع مقدار وعيه بقراءة القرآن من ترجمته الروسية وترجمته الفرنسية في عصره، ويكشف تتبع المجموعة الشعرية كلها عن قراءة شاملة للقرآن عند بوشكين، انعكس أثرها على الشعراء الروس والغربيين المعاصرين لبوشكين والذين جاءوا بعده.

فيكتور هوجو "Victor Marie Hugo" (١٨٠٢- ١٨٨٥م).

قد لا نكون بحاجة للتذكير بأنه كان أديبا وشاعرا وروائيا فرنسيا وعالميا، ويعدّ من أبرز أدباء فرنسا في الحقبة الرومانسية، وتُرجمت أعماله إلى أغلب اللغات المنطوقة، وهوَ مشهورٌ في فرنسا بوصفه شاعِرا في المقام الأول ثُم روائيا، وقد ألّف العديدَ من الدواوين لعلّ أشهرها ديوان" تأملات"، وديوان" أسطورة العصور"، أمّا خارِج فرنسا، فهو مشهورٌ بوصفه كاتِبا وروائيا أكثر من كونه شاعِرا، وأبرَز أعمالِه الروائية هي رواية "البؤساء"، و"أحدَب نوتردام"، كما

اشتَهر في عصره بوصفه ناشطًا اجتماعيا حيث كانَ يدعو لإلغاء حُكم الإعدام، كما كانَ مؤيّداً لنظام الجمهورية في الحُكم، وأعمالُه تَمَس القضايا الاجتماعية والسياسيّة في زمنه.

وكغيره من الأدباء المنصفين، لم يستطع هوجو أن يسلم بصحة الأخبار والخرافات التي نقلها الغربيون عن الإسلام والرسول محمد ﷺ، بل إنه عكف على القراءة والاطلاع من المصادر الموثوقة إلى أن توصل إلى حقيقة الإسلام، وصدق دعوة نبيه محمد، على نحو جعله يعلن إعجابه بالإسلام وقيمه، وبرسوله الكريم، ووصل به الأمر إلى حد مدح الرسول الكريم، والحديث عنه في بعض قصائده، ولشدة وضوح الموقف، تناقل كثير من الباحثين وغير الباحثين خبرا عن إسلام فيكتور هوجو في آخر أيامه، ونجد دون سند موثوق من يقول إنه ذهب إلى تغيير اسمه إلى (أبو بكر هوجو)، "وأصحاب فكرة إسلام فيكتور هوجو يعتمدون على القصائد التي قالها في مدح النبي محمد ﷺ، وعلى أن المركز الوطني للأبحاث العلمية الفرنسي حذف كل قصائد "هوجو" من على موقعه الإلكتروني، ويؤكدون أن الجماعات الصهيونية والماسونية والمتعصبين أخفوا إسلام فيكتور هوجو؛ منعًا لتأثير ذلك الأمر الخطير في الآخرين، فيما يصف المعارضون ذلك بأنه هراء، وأن المسلمين لا يجيدون إلا ترديد وترويج الإشاعات"[٣٥]، وأيا ما كانت الحقيقية فالذي يهمنا أكثر هو قصائده ذات الصلة بالبحث، ومن أشهر قصائد "هوجو" عن الإسلام قصيدة "العام التاسع الهجري"L'an neuf de l'Hégire، التي ضمنها في ملحمته الخالدة "أسطورة القرون" La Légende des siècles والتي تحدث فيها عن تاريخ البشرية كله منذ آدم وحواء، مرورًا بالمسيح ﷺ ومحمد ﷺ، والزعماء والقادة والأباطرة الرومان، وبعض سلاطين الدولة العثمانية، ومما جاء في هذه القصيدة وهي قصيدة طويلة، قوله:

كان ينصت لمحدثيه بهدوء
ويتكلم آخر المتكلمين
ويصوم أكثر من غيره
ويقول للجمع :
هو ذا، أنتم جميعا ماثلون
أنا كلمة من كلمات الله
فأنا رماد كبشر
لكن مثل النار كنبي
أيها الأحياء
هي ذي الساعة حيث سأختفي
في مسكن آخر[٣٦]

يسرد هوجو في هذه القصيدة أجزاء مختارة من سيرة الرسول محمد ﷺ، ويتوقف وقفة أطول عند العام التاسع للهجرة، ثم العام الذي توفي فيه الرسول الكريم، ويظهر للقارئ من القصيدة أنه اطلع اطلاعا جيدا على خطبة الرسول في حجة الوداع، ومزجها بالأخبار التي وردت في وفاة الرسول ﷺ، على نحو يكشف تقديره وتعظيمه لشخصية الرسول محمد ﷺ، وتمثله للقيم السامية التي كان عليها، وهو ما يجعل هذه القصيدة من وجهة نظر الدراسة جديرة بدراسة مستقلة.

وأمام شاعر وأديب بحجم فيكتور هوجو فإن الحديث عن التأثير في تكوين الصورة يكون حقيقة وذا قيمة كبيرة، ووجود عمل لهذا الشاعر يتجاوز فيه الصورة النمطية السلبية للرسول الكريم، ويعرض لصورة متزنة منصفة وتمثل الحقيقية يعد سبيلا من سبلنا في هدم الصورة النمطية، وإحلالا الصورة الحقيقية مكانها.

راينر ماريا ريلكه "Rainer Maria Rilke" (١٨٧٥- ١٩٢٦م).

شاعر من أصل نمساوي، ولد في التشيك، ويعد واحدا من أكثر شعراء الألمانية تميزا في العصر الحديث، ركّز في شعره على صعوبة التواصل في عصر الكفر والعزلة والقلق العميق، وهي المواضيع التي وضعته كشخصية انتقالية بين الشعر التقليدي وشعر الحداثة، يرى النقاد أنه كان بوهيميا/ رومانسيا/ حداثيا، وتناول ريلكه في أدبه الشعري والنثري موضوعات مختلفة، غنية في تفاصيلها تستند بدرجة رئيسية إلى وقائع حياته المضطربة، لكن ما يتميز به أسلوب ريلكه هو ليس فقط استعراضه للوقائع الحياتية وتجاربه الذاتية، إنما الكيفية التي عالج بها الموضوعات الإنسانية الجوهرية، وذلك عبر رؤية فلسفية عميقة غير قابلة للاندثار، ومنها موضوعات الحبّ والطفولة والحنين والأمل والكراهية والبؤس والعزلة والصداقة والموت، ولعل مفردات الحنين والموت والعزلة كانت طاغية على إبداع الشاعر والناثر في أعماله المبكرة، إثر تجارب قاسية خاضها في طفولته وصباه.

وبعيدا عن الجدل الديني، والقلق الروحي الذي كان الشاعر يعيشه إلا أنه يظهر وعيا بحقيقة الرسالة المحمدية، ويتخذ من سيرة الرسول محمد معادلا موضوعيا للتعبير عن الحالات الوجدانية التي يعيشها الشاعر، ونتلمس جانبا من ذلك في قصيدة "رسالة محمد" التي يقول فيها:

عندما تراءى لي في المغارة الملاك
ذلك الكائن العلوي الذي يعرفه المرء منذ أول نظرة
صافيا ومشعا ولاهبا،
تخلى الرجل عن كل طلب آخر
وسأل أن يبقى ما هو: تاجرا كانت أسفاره
قد بلبلت جنانه بقوة
ما قرأ يوما – وفي تلك اللحظة كان هناك
مثل ذلك الكلام المفرط العلو في نظر كائن حكيم
بيد أن الملاك الآمر أراه مرارا
ما كان مكتوبا في صحيفته
وكان لا يقبل التراجع ويقول له أن: اقرأ
فقرأ، بحيث انحنى أمامه الملاك
وآنئذ صار هناك رجل كان قد قرأ منذ وهلة،
وبات يقدر ويمتثل وينجز(٣٧)

إن التأمل في القصيدة السابقة، يذكرنا على نحو ما بقصيدة بوشكين التي أشرنا إليها، لكن ما يهمنا في الأمر أننا نقف على أنموذج لشاعر غربي كبير يرسم صورة تماثل الأصل الحقيقي للسائد والمألوف في تاريخنا وتراثنا وحضارتنا، وتخلو من الافتراء والتشويه الذي غلب على الأعمال الأدبية التي ذاعت في ذلك الوقت وقبله.

إيفان بونين "Ivan Bunin" (١٨٧٠-١٩٥٣م).

يُعد الشاعر الروسي إيفان بونين الحاصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٣٣م من أبرز الأدباء الروس تأثراً بالشرق العربي والحضارة الإسلامية، وهو تأثر من نوع خاص تمتزج فيه الدراسة والاطلاع بالمعيشة والتجربة الذاتية، فقد طاف بونين "بمصر، وفلسطين، والأردن، وسوريا، ولبنان، والجزائر، ويكتسب موضوع التأثير العربي والإسلامي في إنتاج بونين مكانة كبيرة؛ نظرا لثرائه وتعبيره عن امتداد الاهتمام بالشرق العربي في الأدب الروسي في بدايات القرن العشرين"[٣٨].

وفي ضوء ما سبق، ظهر تأثر بونين بالشرق والإسلام ظهورا بارزا، ومتنوعا في أعماله الشعرية، وفي أعماله النثرية واستطلاعاته التي كان يجريها، ويمكن القول إن أعمال بونين " التي يجد الإسلام بها صداه تدور حول المحاور الآتية: سيرة الرسول محمد -عليه الصلاة والسلام-، وشعائر الحج والصلاة في الإسلام، والمدن العربية التي اختصها القرآن بالتكريم وارتبطت في الأذهان بمقدسات المسلمين وعلى رأسها مكة، وكذلك المساجد الإسلامية المشهورة"[٣٩]، وقد ذكر عدد من الدارسين الروس أنه -إضافة إلى ما سبق- قام بدراسة الإسلام وتعاليمه، وقرأ القرآن الكريم وتأمل فيه.

ومن النماذج الشعرية التي يستمدها بونين من سيرة الرسول ﷺ، قصيدة "محمد مطاردا"، ويقف في هذه القصيدة على المعاناة التي لقيها الرسول الكريم في سبيل دعوته، حتى أمره الله بالهجرة من مكة إلى المدينة، يقول في القصيدة:

حلقت الأرواح فوق الصحراء
في الغسق، فوق الوادي الحجري
ودوت كلماته الجزعة
مثل ينبوع نسيه الله
وعلى الرمل، حافٍ، بصدر مكشوف
كان يجلس ويتكلم بحزن:
"وليت وجه الصحراء والفقر
عزلت عن الجميع، من أحبهم"
قالت الأرواح: "لا يجدر
لرسول أن يكون ضعيفا متعبا
والرسول في حزن وسكينة
أجاب: كنت أشكو للحجر[٤٠]

والشاعر يرسم لوحة شعرية، تمزج بين الواقع والخيال، وتكشف في بنائها عن معاناة الرسول في سبيل دعوته، لكنه يؤكد في ختام القصيدة حقيقة اعتقاده بمحمد -عليه الصلاة والسلام-، مؤكدا أنه رسول من الله، وهذا ما يكشف الصورة

الحقيقية التي ينبغي أن يقرأها الغرب عن شخصية محمد ﷺ.

وإلى جانب هذه القصيدة، نجد قصائد أخرى لبونين مستلهمة من الدين الإسلامي، كذكر البراق الوارد في حادثة الإسراء والمعراج، وقصيدة "إبراهيم" المستلهمة من قصة إبراهيم كما وردت في سورة الأنعام، وقصيدة "علامات الطريق" التي يستوحيها من سورة النحل، وشعائر الحج الواردة في القرآن، وقصيدة "المقام" التي تدور حول شعيرة الطواف، ويستلهم بعض أجزائها من سورة الحج، وعلى هذا النسق يسير في قصائد: "الحاج"، و"حجر الكعبة الأسود"، و"الكوثر"، و"التراب المقدس"، و"ليلة القدر"، وغيرها[٤١]، وهو يفتتح بعض هذه القصائد باقتباس آيات من سور القرآن، ولا يكاد يخرج عن الحقائق والوقائع كما هي في المعتقد الإسلامي.

فيديريكو غارثيا لوركا "Federico Garcia Lorca" (١٨٩٨- ١٩٣٦م).

يعد واحدا من أهم الشعراء الإسبان خلال القرن العشرين، نشر عدة دواوين شعرية مشهورة، فضلا عن بعض المسرحيات، عاش في مدريد منذ عام ١٩١٩م، وفيها التقى الفنان الشهير سلفادور دالي، وجمعتهما صداقة عميقة، وقد تولى دالي تصميم الديكور لإحدى مسرحيات لوركا الشهيرة، من أشهر مؤلفاته الشعرية ديوان "الأغاني الغجرية". وخلال الحرب الأهلية في إسبانيا، اعتقل لوركا، وكان من دعاة قيام النظام الجمهوري ومناهضا للحكم الملكي، وأعدم على يد القوات المؤيدة للطاغية فرانسيسكو فرانكو، وفشلت الثورة الجمهورية.

أثّر لوركا في عدد كبير من شعراء الحداثة العرب، أمثال بدر شاكر السياب، وعبد الوهاب البياتي، وصلاح عبد الصبور، ومحمود درويش، وغيرهم، وتمثلوا شعره وحياته في أعمالهم الأدبية، وترك الأثر الإسباني العربي في أشعار لوركا المولود في مدينة غرناطة صداه عند الشعراء العرب، وترك لوركا الثائر والمناضل أثرا موازيا في رؤية الشعراء ومواقفهم المشابهة، أما من جهة لوركا فإنه يذهب في بعض قصائده للقول بأنه من أصل عربي غرناطي، والحديث عن تأثير الحضارة العربية والإسلامية " في الثقافة الإسبانية لا يقبل الحذف باعتراف الشعراء الإسبان أنفسهم، كما أنه ليس مجرد قلادة أو عنصر ناتئ أو جملة معترضة في تاريخ إسبانيا، إنه ذائب في سياقاتها ورافد من روافدها التي تصب في البحر الثقافي ذاته"[٤٢].

أكد لوركا ودارسون وصحفيون إسبان على الروح العربية التي كان يحملها لوركا، "يقول الصحفي الإسباني ميندیث دومينغث في مقابلة أجراها مع لوركا عام ١٩٣١م إن لوركا يؤمن بالعروبة، ولهو أكثر عربيا منه أندلسيا، أكثر أبا منه ابنا، ويقول لوركا: إن العربي نحمله جميعا في ذواتنا، وفي موضع آخر يقول: في كل مكان ثمة دواع عربية"[٤٣]، وعلى نحو أكثر صلة يلمح لوركا إلى أن الإسبان المسيحين هم في الأصل مسلمون، يقول في قصيدة عثر عليها بعد وفاته، وتشبه إلى حد كبير أرجوزة لشاعر الحمراء ابن زمرك:

عائشة وفاطمة ومريم
ثلاث عربيات نضرات
كن يرحن بقطف التفاح
فيجدنه قد قطف

في جيّان
عائشة وفاطمة ومريم
دعهن
من أنتن يا سيداتي
يا سالبات حياتي؟
نحن مسيحيات، كنّ مسلمات
في جيان،
عائشة وفاطمة ومريم.. (٤٤)

يتضح في ختام القصيدة رؤية لوركا لحقيقة الإسلام، وللمسلمين، فهو يرى " أن الأندلسيين المسيحيين هم حفدة الأندلسيين المسلمين، وبالتالي فهم الشعب نفسه أمس واليوم"(٤٥)، ومن هذه الرؤية والتأثر الكبير بالحضارة العربية والقيم الإسلامية، ظهر تمثل لوركا لقيم الدين الإسلامي، كالإيمان بالقضاء والقدر، والعدالة والحرية، التي تلمسها في أبناء العرب، وغابت التصورات النمطية والقيم السلبية والخرافية عن الإسلام ورسوله والمسلمين من أشعاره، دون أن تغيب الثقافة المسيحية ورموزها المثلى عن أشعاره أيضا.

ويستعرض الباحث محمود صبح من جامعة مدريد المواضع والرموز والمعتقدات العربية والإسلامية التي عبر عنها لوركا في أشعاره ومسرحياته ومقالاته الصحفية، وآمن بها، وسعى نحوها، إلى حد جعله يقول في نهاية بحثه: "وبعد، فهل كنا مبالغين حين قلنا بأن (لوركا) شاعر عربي كان يكتب باللغة الإسبانية؟"(٤٦)، ويظهر للدراسة أن لوركا أكثر من استخدام كلمة (العربي) ومشتقاتها على نحو مرادف للإسلام وقيمه السمحة.

وإن كانت النماذج والأعلام السابقة تختص –أنموذجيا– بالرواد والكبار من مشاهير الشعر الغربي، إلى جانب رسوخ الأثر الإسلامي والديني والعربي في أعمالهم، مع تعدد وتنوع في هذا الملمح والأثر، فإن المنجز الشعري الغربي يفيض بالشعراء الذين نجد عندهم قصائد محدودة –وقد تكون مفردة– تقوم على أساس الرسم الحقيقي لصورة الرسول محمد ﷺ، والدين الإسلامي، نذكر منهم على سبيل المثال: ألكسندر شيشكوف في قصيدة "نصير محمد"، وأندريه مورافيوف في "أغنية الدراويش"، ولوغيان ياكوبوفيتش في قصيدة "من القرآن"، وميخائيل ليرمونتوف في قصيدة "الرسول"، وإدجار آلان بو في قصيدة "إسرافيل"، وألفونس دي لامارتين، صاحب مقال "من أعظم منك يا محمد؟" الذي يتحدث فيها عن عظمة الرسول محمد، ويدفع الأباطيل والخرافات التي نشرها كتّاب وأدباء القرون الوسطى وما تلاها عن نبي الإسلام، يقول في سياق متصل بما نعرضه:" لا أحد يستطيع أن يتطلع، عن قصد أو غير قصد، إلى بلوغ ما هو أسمى من ذلك الهدف، ألا وهو تقويض الخرافات التي تجعل حجابا بين الخالق والمخلوق، وإعادة صلة القرب المتبادل بين العبد وربه، ورد الاعتبار إلى النظرة العقلية لمقام الألوهية المقدس، وسط عالم فوضى الآلهة المشوهة التي اختلقتها أيدي ملة الإشراك"(٤٧)، وهذه هي حقيقة الإسلام ودعوة رسوله الواجب على كل مسلم الإسهام بإيصالها لغير المسلمين، ولذا، لم يكن من عجب أن يختم لامارتين مقاله بالقول: "إنه الحكيم، خطيب جوامع الكلم، الداعي إلى الله بإذنه، سراج التشريع، إنه المجاهد، فاتح مغلق أبواب الفكر، باني

صرح عقيدة قوامها العقل، وطريق عبادة مجردة من الصور والأشكال، مؤسس عشرين دولة ثابتة على الأرض، ودعائم دولة روحية فرعها في السماء، هذا هو محمد، فبكل المقاييس التي نزن بها عظمة الإنسان، فمن ذا الذي يكون أعظم منه؟"[٤٨]، وهو سؤال نؤمن أنه لا يحتاج إلى جواب، وإنما يحتاج إلى جهود صادقة، تجعله حقيقة إنسانية عامة وراسخة، ووسيلة نتقرب بها إلى الله ورسوله عليه الصلاة والسلام.

القراءة والتحليل.

على الرغم من أن كثيرا من الكتب والمواقع والوسائط تتناقل أقوال المشاهير من الأدباء والمفكرين ورجال الدين والسياسة والعلماء الغربيين التي تتحدث بتعظيم وتقدير عن الإسلام ورسوله الكريم، إلا أن ذلك ليس كافيا أو مؤثرا بالقدر اللازم لإحداث التغيير المطلوب في الصورة النمطية المشوهة التي رسمتها المصادر الغربية للإسلام ورسوله في العقلية الغربية منذ قرون عدة، ومن هذا المنطلق اتجهت هذه الدراسة نحو الأعمال الشعرية التي صدرت عن كبار الشعراء الغربيين، وتستكمل الرصد الذي قدمته بهذا المحور الذي يقدم حصيلة القراء والتحليل لما سبق بيانه.

ينبغي الوعي بأن صورة الرسول محمد ﷺ، وصورة الدين الإسلامي، وصورة المسلمين كانت كثيرا ما ترد على نحو مترادف ومتقابل عند الشعراء والأدباء، وعلى نحو قد يتعذر معه الفصل التام أحيانا بين هذه الصور الثلاث، بل نجد في بعض الحالات أن الصور الاجتماعية والأنماط الثقافية والعادات والتقاليد والبيئة الشرقية كانت تعكس في بعض جوانبها صورة مضمرة للإسلام ورسوله وأتباعه.

وتنفي هذه الدراسة عن مضمونها أي انبهار أو حفاوة زائدة بشهادات الشعراء الغربيين للإسلام ورسوله، وتؤمن أن هذه الشهادات –الصادقة– لا تغير من الحقيقة شيئا، لكننا نقول للمعترضين على توجهنا: قد لا نكون – نحن المسلمين– بحاجة إلى هذه الشهادات التي تعكس جانبا من إيماننا ومعتقدنا الإسلامي، إلا أننا نحتاج هذه الشهادات في حجاجنا مع الآخر الغربي الذي لا يؤمن بما نؤمن به، ولا يعرف الحقائق التي نعرفها وندركها، ولذلك وجدت الدراسة من يحاول التشكيك في مصداقية هذه الشهادات والأقوال، وحاول أن يفسرها تفسيرات بعيدة عن فهمنا لها، ومقاصدها الظاهرة، ومن ذلك على سبيل المثال، ما نجده عند باحث يرى أن "فولتير" مثلا عندما انقلب موقفه من الرسول والإسلام، إنما كان يتخذ من ذلك سبيلا لنقد الكنيسة المسيحية، " كان مجرد تَمْوِيهٍ لمهاجَمة الكنيسة، من غير السقوط تحت طائلة الرقابة القانونية، وكان هذا رأي الأديب الألماني جوته، الذي ترْجَم المسرحية [مسرحية محمد أو التعصب]، وحين أبداه للقائد الفرنسي بونابارت وافقه عليه"[٤٩]. إلا أن تاريخ هذه المسرحية كان سابقا على التغير في موقف "فولتير" ومن يقرأ في كتابه "القاموس الفلسفي" سيجد تعرية كاملة لأباطيل رجال الدين والكنيسة وافتراءاتهم على الرسول محمد ﷺ وعلى الإسلام، ونحن بوضوح لا يهمنا إلا الحقيقة التي شهد بها شاهد منهم.

ذلك المذهب المشكك في مواقف المفكرين والأدباء الغربيين الذين صرحوا بمواقف مغايرة للسائد في الغرب عن الإسلام ورسوله الكريم نقف عليه بوضوح عند الدكتور عدنان وزّان الذي يقول: "إن كثيرا من الناس يغترون بمقولات قد تكون إيجابية عن الإسلام تصدر عن بعض مفكري وأدباء الغرب، أمثال "كارليل" و"برنارد شو"، وكأن لسان حالهم يقول: لولا هذه المقولات لما ثبت صدق الإسلام ونبوة رسوله ﷺ، وصدق ما جاء به من التنزيل الحكيم، وأتساءل: إذا

كان الإسلام كذلك، فلماذا لم يسلموا هم، ولماذا لم يعتنقوا الإسلام ويدعو الناس إلى الإيمان والتصديق...إلخ، ولكن لكل زمان عبد الله بن سلول؟"[٥٠]، ومع الاحترام لكل رأي، فإن مسألة اعتناق الإسلام من عدمها لا تعني تعارضا مع الإقرار بالحقيقة، والموضوعية والاعتدال في النظرة، ولا يمكن أن نرهن قبولنا لمواقف الآخرين وآرائهم لاشتراكهم معنا في المعتقد والدين.

ومع أن التساؤلات تبقى دائما مشروعة إلا أن الدراسة ترى أن الأمر ليس على هذا الوجه من الإلزام، وقد يكون التساؤل الأقرب إلى الموضوعية: لماذا لم يقدم –إلا فيما ندر– هؤلاء الأدباء أعمالا أدبية تنبري لتقديم الصورة الحقيقية للرسول ﷺ وللدين الإسلامي، ولأتباع هذه الدين؟ ولماذا اكتفى أغلبهم بمجرد شهادات وأقوال تائهة في بطون الكتب والمقالات والتصريحات الصحفية العابرة؟ ومع ذلك فإن الموضوعية تتطلب منا الإقرار بأن تلك المواقف والشهادات الصادقة كانت ذات قيمة كبيرة ودور مهم في خلخلة بنية الصورة النمطية السائدة، وأسست لمحاولة هدمها واستبدالها، وهنا يظهر دورنا في توظيف هذه المسائل لإحقاق الحق.

نحن لا نملك حق التشكيك المطلق في كل شهادة حق عن الرسول محمد ﷺ أو دين الإسلام، ومما لا شك فيه أن تبعات المجاهرة بهذا الحق في مجتمع غربي تغذى منذ نعومة أظفار الإسلام على مشاعر العداء والكراهية، وعششت في مخياله الأساطير والافتراءات لن يكون أمرا سهلا، ولنا شاهد على ذلك ما لقيه الكاتب والمسرحي العالمي جورج برنارد شو الذي ألف كتابا عن الإسلام وعن الرسول محمد ﷺ فيه شهادات ربما لم تصدر عن بعض المسلمين، وعند البحث والتدقيق نجد أن تلك الأقوال تسند إلى كتاب عنوانه "الإسلام الحقيقي"، لكن الكتاب اختفى، ولم يعد له وجود، ولم يذكره أحد من الذين تناولوا مؤلفات برنارد شو من الغربيين، وهذا يدعو للتأمل في التضييق والقمع الذي تعرض له برنارد شو نتيجة لمواقفه الساخرة من الكنيسة ورجالها، ومواقفه الرافضة لمشاركة بلاده في الحرب العالمية، ودعواته الاشتراكية التي قد تكون سببا في ضياع كثير من مقالاته الصحفية واختفائها وتجاهلها.

مسألة أخرى تثيرها الدراسة في هذا السياق هي لماذا يتم تجاهل هذه النصوص الشعرية وإغفال الوقوف عليها وتدريسها عربيا وغربيا؟ عربيا وإسلاميا نجد قلة قليلة من أهل الاختصاص في الآداب الغربية يقفون على أمثال هذه النماذج، ويكتفي كثير منهم بالإشارة إليها ضمن عموميات الدراسات المقارنة التي تحصر غايتها في رصد علاقات التأثر والتأثير بين القوميات المختلفة، ولذلك ما زال جزء ضخم من هذا الأدب الغربي دون ترجمة ودراسة وتحليل، ونضرب في هذه الدراسة مثالا على ذلك بعدم وجود أي ترجمة عربية لقصيدة "محمد" للشاعر كوليريدج في حدود البحث الذي قمنا به، وهذا تقصير ليس له ما يسوغه، كما أن الدراسات الأدبية المقارنة العربية باتت هي الأخرى بحاجة إلى إعادة نظر في محتوياتها، على نحو يتطلب إفراد دراسات متخصصة لصور الإسلام في الآداب القومية الأخرى، ودراسات للتوسع في تأثير الحضارة والفكر الإسلامي في الآداب الغربية.

وعلى صعيد متصل ترصد الدراسة ما يشبه أن يكون إهمالا –قد يكون متقصدا أو غير متقصد– عند الغربيين أنفسهم في دراسة الأعمال الأدبية الغربية المنصفة في رؤيتها للإسلام ورسوله وأتباعه، وهذا يستوجب من العرب والمسلمين إنجاز دراسات حول أمثال هذه النماذج الأدبية وباللغات الأجنبية التي صدرت بها تلك الأعمال.

إن ملامح التحول في صورة الرسول محمد ﷺ والإسلام في الآداب الغربية تحتاج إلى تفسير وبيان، وترى الدراسة أن

جانبا أساسيا من ذلك يظهر من خلال تحديد أبرز أسباب التحول نحو رفض الصورة النمطية السلبية، وبروز الصورة المثلى والحقيقية للرسول محمد ﷺ في الآداب الغربية، ويمكن حصر أبرز هذه الأسباب في النقاط الآتية:

- تغيير أساليب التلقي المعرفية بالآخر المسلم لدى طائفة من أدباء الغرب وعلمائه ومؤرخيه، وظهور مصادر جديدة أكثر موضوعية وحيادية في نقلها للواقع والحقيقية.
- وضوح التناقض في نقل الصورة بين المصادر الغربية التقليدية، على نحو يثير حفيظة الأمانة والموضوعية العلمية لغايات التثبت من الحقيقية، والوصل إليها.
- تعاظم موجة النقد الديني داخل أوروبا للكنيسة ورجال الدين، وارتفاع الأصوات المطالبة بالإصلاح، على نحو أحدث تراجعا في تأثير المصادر الدينية والتاريخية المؤسسة للنهضة الأوروبية.
- التحولات الاجتماعية الحادة، وما رافقها من ثورات في فرنسا، وروسيا، وإنجلترا وغيرها من الدول الأوروبية، ونمو بذور الحداثة الغربية، وما رافقها من دعوات لقيم العدالة والمساواة والحرية.
- الرسوخ والثبات والتطور الذي شهدته الحضارة العربية والإسلامية، وفشل حملات الحروب الصليبية، وانتشار الإسلام في العالم على نحو لم تعد الخرافات والتفسيرات الباطلة والأكاذيب كافية لتفسيره.
- ظهور فرع جديد من الدراسات الدينية، هو الدراسات الدينية المقارنة، التي وجد في دين الإسلام حقلا خصبا لهذا النوع من الدراسات، والذي لم يكن يخلو تماما في بعض نتائجه من الإشارات الإيجابية في النظرة للإسلام.
- زيادة الصلات ونقاط التماس المباشر والتعايش مع الشرقيين والمسلمين، على نحو أوجد تجارب واقعية للتعامل مع الإسلام والمسلمين، أسهمت في خلق مراجعات للأفكار والتصورات المسبقة عن الإسلام ورسوله لدى نفر من الدارسين الغربيين.

وهذه الأسباب وسواها، قد أسهمت في تغيير مصادر تكوين صورة الرسول محمد ﷺ والإسلام على نحو انعكس إيجابيا على الصورة ذاتها، وبذلك بدأ تأثير بعض المصادر المنحازة التي أشرنا لأبرزها في المحور الأول من الدراسة يتراجع، ويظهر تأثير مصادر جديدة أكثر موضوعية، يمكن حصرها في المصادر الآتية:

- حركة الترجمة الشاملة للكتب والمصادر العربية والإسلامية ونموها وتنوعها، على نحو كشف التناقضات والافتراءات والخرافات التي كانت تنتشر في الترجمات الأولى من جهة، وأضاف من جهة أخرى مصادر لم تترجم سابقا.
- الدراسات المتخصصة للحضارة العربية والإسلامية، ذات الطابع التوسعي في نوعها وغاياتها، فتزايد توجه عدد من الأدباء والمفكرين لدراسة الحضارة العربية والآداب الشرقية على نحو متعمق، ومن خلال مصادرها الأساسية.
- الرحلة إلى الشرق وبلاد المسلمين، والتأثر المباشر بالبيئة الإسلامية، وظهور ملامح للاستشراق بصورته العلمية التي لم تخل في أحيان من الإنصاف والأمانة، والتخلي عن التعصب الديني والعرقي.
- الإقبال على تعلم اللغة العربية، واستقاء العلوم والمعارف العربية من المصادر الأصلية دون ترجمة أو وسيط.

وختاما، تلمح الدراسة فيما يتصل بالشعراء الذين رصدت الصورة المثلى للرسول محمد ﷺ والإسلام في أعمالهم الشعرية، أن أغلبهم يمثل أدباء المرحلة الانتقالية بين الكلاسيكية والرومانسية، وتشبه حالة الثورة على القيم والتقاليد الكلاسيكية والتوجه نحو الرومانسية، حالة التحول والانقلاب على الصورة النمطية السلبية للرسول الكريم ودين الإسلام والتوجه نحو

الصورة المثلى المشرقة، ولعل الفراغ الروحي، وإهمال المشاعر الفردية، وتمجيد العقل المطلق، وغيرها مما ساد في التقاليد الكلاسيكية هو ما شجع البحث عن قيم سامية تلامس الروح، وتقضي على مشاعر القلق الوجودي، ونزعة الشك واليأس الإنساني، وهذا البحث أفضى للكشف عن وجود كثير من هذا القيم في دين الإسلام، وهذا الملمح يؤسس للبحث في مقدار تأثير القيم الإسلامية بصورة عامة في ظهور الحركة الرومانسية وازدهارها.

الخاتمة.

كشفت الدراسة أن الأدب –والشعر في هذا المقام– ما زال قادرا على النهوض بأدوار مؤثرة وفاعلة في رسم الصورة الحقيقية للثقافة والدين والقيم والعادات والتقاليد إلى جانب وظائفه الفنية، وأنه مصدر أساسي مؤثر من مصادر تكوين المعرفة الإنسانية، ومما لا شك فيه أن القيمة الأدبية للأعمال تزداد كثيرا بمقدار شهرة أصحابها، وانتشارهم عالميا، الأمر الذي ينعكس على تأثيرها في جمهور القراء والمتلقين.

وتبين للدراسة أن جهود الدارسين والباحثين العرب والمسلمين في هذا المضمار ما زالت جهودا محدودة، وقاصرة على أعمال فردية، وتحتاج إلى تنظيم وتخطيط وتوحيد، لخلق وسيلة من وسائل محاربة مشاعر العداء والكراهية المتنامية للإسلام ورسوله، بعد سلسلة من الأحداث المعاصرة انعكس أثرها سلبا على صورة الإسلام والمسلمين، وخلقت تيارا غربيا راديكاليا متطرفا في نظرته للإسلام والمسلمين، يسعى سعيا حثيثا لوسم الإسلام والمسلمين بالتطرف والإرهاب، ولا يترك مصدرا أو وسيلة إلا ويوظفها لترسيخ هذه الصورة في أذهان غير المسلمين.

وتبين كذلك للدراسة من خلال الاستقراء، والبحث عن النماذج ذات الصلة بحدودها، أن صورة الرسول محمد ﷺ والإسلام والمسلمين الحقيقية لم تقتصر على حدود الشعر، وإنما امتدت في أجناس أدبية أخرى كالمسرحية والملحمة والرواية والقصة، على نحو يجعل هذه الأجناس جديرة بدراسات مستقلة، وهو ما توصي به هذه الدراسة، كذلك توصلت إلى أن الجنس الأدبي المسرحي كان أكثر الأجناس الأدبية الغربية معالجة لصورة الرسول محمد ﷺ سواء النمطية المشوهة أو المثلى الحقيقية المشرقة، ويعود السبب في ذلك إلى العناية الكبرى بالأدب المسرحي خلال الحقبة الكلاسيكية، وبدايات الرومانسية، إلى جانب نبوغ عدد كبير من الشعراء بالتأليف المسرحي، وتؤكد الدراسة أن فائدة كبيرة يمكن أن تتحقق من خلال دراسة تختص بصورة الرسول محمد والإسلام في المسرح الأوربي، وكذلك أخرى متخصصة في الرواية الغربية.

الهوامش.

(١) أحمد زهير رحاحلة، **تحليل الخطاب الديني في رواية الخيميائي لباولو كويلو**، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، مجلد (١٤)، عدد (٢)، ٢٠١٨م، ص١٦٧.

(٢) صفي الدين المباركفوري وآخرون، **وإنك لعلى خلق عظيم**، شركة كندة للإعلام والنشر، القاهرة، ٢٠٠٦م، ج٣، ص١٣٢.

(٣) رجب البنا، **الغرب والإسلام**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٢٧٣.

(٤) محمد ياسين مظهر، **الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي**، ترجمة: سمير عبد الحميد إبراهيم، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٣٨.

(٥) المباركفوري، **وإنك لعلى خلق عظيم**، ج٣، ص١٣٤.

(٦) سامي هاشم، **صورة الإسلام المفترى عليه في أمريكا، جريدة نهضة مصر**، العدد ٢٠٥، ٢ نوفمبر ٢٠٠٤م، ص١١.

(٧) **البنا، الغرب والإسلام**، ص٢٣٧.

(٨) مظهر، **الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي**، ص٣٩.

(٩) مظهر، **الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي**، ص٣٩.

(١٠) المباركفوري، **وإنك لعلى خلق عظيم**، ج٣، ص١٢٧.

(١١) عبد الودود يوسف الدمشقي، **قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله**، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤م، ص٤٢".

(١٢) إدوارد سعيد، **الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق**، ترجمة: محمد عناني، رؤية للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة المزيدة، ٢٠٠٦م، ص١٢٨.

(١٣) للمزيد حول هذه الصورة النمطية، ينظر: عبد الرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م، ص٣٠٢ وما بعدها.

(١٤) محمد عمارة، **الإسلام في عيون غربية**، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٢٨٨.

(15) Jack G. Shaheen, **Reel Bad Arabs: How Holly wool vilifies a people**. New York and Northampton, MA: Olive Bramch Press, 2001, pp 10-556.

(١٦) محمد السيد الجلنيد، **الاستشراق والتبشير**، دار نهضة الشروق، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٦٨.

(١٧) محمد العمارتي، صورة **الرسول محمد في الاستشراق الإيطالي: دراسة في النشأة والتطور والامتداد**، مؤمنون بلا حدود، ٢٤ أكتوبر ٢٠١٦م، ص١٧.

(١٨) محمد العمارتي، **صورة الرسول محمد في الاستشراق الإيطالي: دراسة في النشأة والتطور والامتداد**، ص١٠-١١.

(١٩) عدنان وزّان، **صورة الإسلام في الأدب الإنجليزي: دراسة تاريخية نقدية مقارنة**، دار إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٨م، ص١٦١.

(٢٠) محمد العمارتي، **صورة الرسول محمد في الاستشراق الإيطالي: دراسة في النشأة والتطور والامتداد**، ص١٩.

(٢١) حيدر مجيد، **الشخصية المحمدية في الخطاب الاستشراقي البريطاني حتى نهاية القرن ١٨، دراسات استشراقية**، العدد الثالث، شتاء ٢٠١٥م، ص٥٣.

(٢٢) مجيد، الشخصية **المحمدية في الخطاب الاستشراقي البريطاني حتى نهاية القرن ١٨**، ص٥٧.

(23) Garcia Humberto, **Islam and the English Enlightenment** ١٨٢٤-١٧٢٢, Johns Hopkins University press,USA, 2012, p2.

(٢٤) رابط لقصيدة "محمد": https://www.bartleby.com/297/323.html

(٢٥) مجيد، **الشخصية المحمدية في الخطاب الاستشراقي البريطاني حتى نهاية القرن ١٨**، ص٥٨.

(٢٦) هذه هي الترجمة العربية الأولى للقصيدة، حرصت على نقل المعاني والصور التي أرادها النص الأصلي قدر المستطاع.

(٢٧) كاترينا مومزين، جوته والعالم العربي، ترجمة: عدنان عباس علي، عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٩٤، ١٩٩٥م، ص١٧٥.

(٢٨) مومزين، **جوته والعالم العربي، ص**١٣٩.

(٢٩) يوهان غوته، **الديوان الشرقي للمؤلف الغربي**، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٦٦، ص١٨٠.

(٣٠) مكارم الغمري، **مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي**، عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٥٥، ١٩٩١م، ص٧٤.

(٣١) الغمري، **مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي**، ص٨٦.

(٣٢) ألكساندر بوشكين، **الغجر وأعمال أخرى ترجمة: رفعت سلام**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠م، ص٧٣-٧٤.

(٣٣) الغمري، **مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي**، ص١٤٣.

(٣٤) الغمري، **مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي**، ص١٤٨.

(٣٥) المحرر الثقافي، ما هي حقيقة اعتناق فيكتور هوجو للإسلام؟ صحيفة العرب مباشر الإلكترونية، ٢٦-٢-٢٠١٨، تم استرجاعه بتاريخ ١٧-٧-٢٠١٩م من الموقع: http://www.arabmubasher.com/11013

(٣٦) نادية الأسدي، مدخل إلى الأدب العالمي وتأثره بالثقافة الإسلامية، ٢٠-٧-٢٠١١، مؤسسة النور للثقافة والإعلام، تم استرجاعه بتاريخ: ١٦-٧-٢٠١٩م من: http://www.alnoor.se/article.asp?id=120654

(٣٧) راينر ريلكه، **سونيتات إلى أورفيوس**، ترجمة: كاظم جهاد، كلمة ودار الجمل، أبو ظبي – بغداد، ٢٠٠٩م، ص١٨٦-١٨٧.

(٣٨) الغمري، **مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي**، ص٢٥٥.

(٣٩) الغمري، **مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي**، ص٢٥٦.

(٤٠) الغمري، **مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي**، ص٢٥٧.

(٤١) ينظر تفاصيل القصائد ومضامينها في كتاب: **مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي**، ص٢٥٨-٢٧٣.

(٤٢) خيري منصور، **لوركا عربيا**، مجلة ثقافات الإلكترونية، ٢٢-١١-٢٠١٥م، تم استرجاعه بتاريخ ٢٠-٧-٢٠١٩م من الموقع: http://thaqafat.com/2015/11/29064

(٤٣) محمود صبح، **المواضيع العربية عند لوركا**، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، العددان ١٩١-١٩٢، ص٢٠٠-٢٥٠، ١٩٧٨م، ص٢١٧.

(٤٤) صبح، **المواضيع العربية عند لوركا**، ١٩٧٨م، ص٢٢٢.

(٤٥) صبح، **المواضيع العربية عند لوركا**، ١٩٧٨م، ص٢٢٢.

(٤٦) صبح، **المواضيع العربية عند لوركا**، ١٩٧٨م، ص٢٣٤.

(٤٧) ألفونس دي لامارتين، **من أعظم منك يا محمد؟**، ترجمة: محمد المختار ولد أباه، مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، العدد ٥٢٤، يوليو ٢٠١٢م، ص٥٩.

(٤٨) لامارتين، **من أعظم منك يا محمد؟**، ص٥٩.

(٤٩) عبد العزيز كحيل، **فولتير وموقفه من الإسلام**، مقال منشور في شبكة الألوكة، ٢٨-١٠-٢٠٠٩م، تم استرجاعه من: https://www.alukah.net/culture/0/7987/

(٥٠) وزّان، **صورة الإسلام في الأدب الإنجليزي: دراسة تاريخية نقدية مقارنة**، ص٦١٦.